

مفهوم الواقعية للحركات الثورية

توطئة :

تُعد العلوم الاجتماعية من أعقد العلوم التي يتعاطى معها طلاب العلم وبنو البشر ؛ كيف لا وهي - العلوم الاجتماعية - قائمة على دراسة سلوك الانسان ؛ منشأً وتحليلاً وتعليلاً ، فإن كان منشأ الفعل من الكائنات التي تنتج أعمالها - فعلاً أو رد فعل - انطلاقاً من كثير من الدوافع و كثير من المحددات والمنطلقات ؛ إن كانت أفعاله كذلك - وهي كذلك - فإنه يبني عليها كثير من التفسيرات والتأويلات والتحليلات ؛ بناء على جهة التحليل أو التعليل ، والأدوات التي استخدمتها تلك الجهة عند قيامها بدراسة هذا السلوك البشري . ومن أكثر المصطلحات التي تطرق أذن السائل عندما يسأل عن تعليل فعل أو تحليل سلوك ، مصطلح "الواقع" ومشتقاته ، من "واقعية" أو "بواقعية" أو "واقعيًا" ، ولما كانت الحركات الثورية إنما جاءت لتتعامل مع ، "واقع موجود" بهدف تغييره إلى أو سوجه باتجاه "واقع منشود" ، كان لا بد للثورة والثوريين أن يكون لهم فهمهم الخاص لهذا المصطلح السياسي ، الأمر الذي ستحاول هذه الورقة أن تجيب عليه من خلال طرقها لعناوين ذات صلة ، بدءاً من تحرير المصطلحات ، ثم التعرّيج السريع على مدارس العمل السياسي في العلاقات الدولية ، ثم ستقترح الورقة مفهوماً خاصاً للواقعية ، نزع أنه يمكن أن يكون صالحاً للحركات الثورية ، لتختتم - الورقة - بما يقتضيه هذا التعريف المقترح من مقتضيات ، وما ينبني عليه من مخرجات . فنكون بذلك قد أسهمنا في ضبط المصطلحات ، ليبنى على الشيء مقتضاه .

تحرير المصطلحات :

تعريف الواقعية :

يصطدم الباحث عند يدقق في مصدر كلمة "واقعية" لضبطه عبر معاجم اللغة ، يصطدم بكم هائل من المعاني والمشتقات ، ما بين ما هو اسم ، وما هو فعل أو صفة ، ولن ندخل في هذا الباب من البحث ، فله أهله وأصحابه ، ولكن ما يعيننا في هذا المجال هو تعريف الواقعية والتي تكاد تجمع عليه كل التفسير على أنها عكس الخيال ، أو هي : وجهة النظر التي تتطابق مع الأشياء المعروفة ، أو المدركة وجودياً . أي أنها تتحدث عما هو قائم ومشاهد وملموس فعلاً في الحاضر ، وليس لها علاقة بما هو متصور في المستقبل ، أو ليس هناك شواهد على إمكانية حدوثه ، هذا باختصار .

تعريف الثورة :

أما عن الثورة فنكتفي بما تكاد تجمع عليه المعاجم أيضاً من أن : ثار الشيء ثورا ، وثوروا وثورانا . «وأرض مثارة»، إذا أثيرت بالسن، وهي الحديدية التي تُحرث بها الأرض، أي قلبها على الحب بعدما فتحت أول مرة ، وقال عز وجل «وأثاروا الأرض»، أي حرثوها وزرعوها واستخرجوا بركاتها. إنها فعل قلب على واقع غير مرغوب ، أملاً في تحقيق واقع منشود ، مع وجود أمل في أحداث هذا التغيير ، باختصار .

بهذا المختصر الموجز ؛ نكون قد حررنا هذين المصطلحين ، لذلك نستطيع أن نقول وبكل ثقة أن الثورة نقيض للواقع ، ولا يجتمعان إلا بمقدار تعامل الأولى - الثورة - ، مع

الثانية - الواقع - ، أملاً وإصراراً على تغييره، وعليه فإن من أهم صفات الثورة والثوار أنها وهم ، حركة وأناس غير واقعيين بالمعنى المتبادر ابتداءً إلى الذهن أو الفهم ، إنهم - الثورة والثوار - مكون يتعاطى مع الواقع ليغيره ، ولا يستسلم له عاجزاً ، مسلياً النفس بأن الواقع يتطلب التعامل معه بواقع ، فقط ، وفي هذا سنفصل لاحقاً .

تعريف نظريات العمل في العلاقات الدولية :

واستكمالاً لمفردات الورقة ، وحتى نأتي على أبجديات هذا البحث الأولية ، لا بد لنا من الإشارة ولو سريعاً إلى المدارس والنظريات الحاكمة في العلاقات الدولية ، من باب أن العلم بالشيء خير من الجهل به ، وهنا نذكر بأن سلوك الوحدات السياسية أثناء عملها الدبلوماسي تحكمه ثلاث نظريات هي :

1. النظرية الواقعية :

وهنا يطول البحث والتفصيل ، وذكر المدارس الفرعية - الكلاسيكية ، الكلاسيكية الحديثة ، الواقعية الجديدة ، الواقعية الهجومية ، والواقعية الدفاعية - داخل هذه المدرسة الكلية . وخالصة الرأي في هذه المدرسة أن دراسة العلاقات الدولية يجب أن تبنى على ما هو قائم فعلاً ، وليس على ما يجب أن تكون عليه الأمور . وتنطلق هذه النظرية في تعاطيها مع الشأن السياسي من منطلقات عدة أهمها : أن لا أخلاق ولا مبادئ في السياسة ، وأنه يجب أن (تتقى) السياسة من المعايير الأخلاقية والمبدئية !! وأن معيار الحكم على أي فعل سياسي هو ما ينتج عنه من نتائج فقط ! وتفترض هذه النظرية أن الدول تتصرف في شؤونها وشؤون غيرها بشكل عقلاني ! وتعرف مصلحة الدولة في هذه النظرية بأمنها القومي ، كما أن بقاء الدولة هو المحدد الأساسي لسلوكها ، وفقاً لما تقوله هذه النظرية وأتباع مدرستها .

2. النظرية الليبرالية :

هي مدرسة سياسية تقوم على احترام حرية المعاملات ، مبرزة الفوائد المتبادلة بين المكونات المجتمعية والسياسية ، وأن حرية الفرد مقدسة ولا يحدها حدود ؛ ما لم يكن في ممارستها - الحرية الفردية - تعدٍ على حرية الآخرين ، أو ألحقت ضرراً بأحد مكونات المجتمع .

3. النظرية الثورية :

تهدف النظرية الثورية في إدارة العلاقات الدولية إلى تغيير النظام وليس إصلاحه ، وهي تعلي من قيمة العدالة ، وترى أن سبب الحروب الرئيسي هو استغلال دول الشمال الغني لدول الجنوب الفقير ، ونهب خيراته ، كما أنها - النظرية الثورية - ترى في تغيير العلاقات الاقتصادية مفتاحاً لحل المشاكل والحروب .

قبل أن ننهي هذا العنوان ؛ لا بد من الإشارة إلى أن لكل من هذه المدارس مؤيدين ومخالفين ، ولدى كل منهم ما يسوقه من ملاحظات أو شبهات لدعم ولتدعيم رأيه - سلباً أو إيجاباً - ، كما يشتقون من هذه النظريات أدوات تحليلهم ودراساتهم لمواقف وسلوكيات الأفراد والوحدات السياسية .

تعريف الواقع والواقعية للحركات الثورية :

إذا كانت الواقعية كما جاءت في مدارس العلاقات الدولية تتطلب التصرف والتحرك بناء على ما يقتضيه الواقع ، وتفرضه الظروف ، وإن كانت الثورة في المصطلح والإجراء إنما هي فعل قلب ؛ فنحن أمام ضدان لا يجتمعان ، إنهما كالليل والنهار ، أو الجوع والعطش ، إنهما - الواقعية والثورية - خصمان يتصارعان في معادلة صفرية ، فلا يمكن اجتماع أحدهما بوجود الآخر ! لكن هل يعني هذا أن يُغفل الثائرون الواقع الذي يتحركون فيه ، فلا يرون مفرداته ، ولا يتلمسون جزئياته ، فينطحوا رؤوسهم في صخر واقعهم الحالي ، فتتكسر قرونهم عليه ؟ أم أن الواقعية تتطلب منهم التعايش مع هذا الواقع وممالاته ، ومساييرته ؟ رائده في ذلك " الإيد اللي ما بتقدر تقطعها بوسها " أو " حظ راسك بين هالروس وقول يا قطاعين الروس " أو أن " العين ما بتقاوم المخرز " . إن كاتب هذه السطور يزعم أن موقف التعامي عن الواقع وإغفاله غير مستساغ ، كما أن الركون له - للواقع - والاستسلام له غير مقبول ، فهو - القبول بالواقع - ليس من صفات الثورة أو الثوار ، لذلك فإن الواقعية في العمل الثوري تتطلب فهماً حقيقياً للواقع وتحدياته ، لاشتقاق طرق واجتراح إجراءات عملٍ تقلبه رأساً على عقب ، وصولاً إلى الغاية المنشودة . وفيما يلي صور ومصاديق " للواقعية " في أهم مفاصل العمل الثوري ففي :

1. تحديد الأهداف والغايات والتعامل معها :

- تحددنا بناء على القدرات وليس الرغبات .
- من الواقعية ، والأمانة الثورية أن يتصرف الثوريون بناء على قاعدة : ما لم أستطعه أنا بحكم الواقع الآن ، قد يقدر عليه غيري في قابل الأيام ، فلا يكبلون - الثوريون - من سيأتي بعدهم بنصوص أو متون فرضها الواقع .
- يُتفاهم عليها من المجموع العامل ، ولا تترك فريسة الأفهام والاجتهادات ، انطلاقاً من مقولة أن الواقع كليل بتفهم وإفهام من لم يفهم .
- ومن الواقعية أن لا يُحد عن الأهداف الكلية والغايات العلية ، حتى لو اقتضى الواقع الحالي كموناً أو وقوفاً .
- ومن الواقعية أن يفهم العاملون أن ما لا أو لم يستطيعوا تغييره الآن ، لا يُبرر لهم التنازل عنه ، وأنه يجب أن يُترك للأجيال التالية أن تحاول تحقيقه .
- وقمة الواقعية أن يقتنع العاملون بأنهم حلقة في سلسلة ؛ لها ما قبلها من حلقات ، ومرتبطة بما بعدها من أجزاء ، لذلك فضعفهم يفت في عضد اللاحقين ، ويقطع صلتهم بالسابقين .

2. بناء العلاقات والصدقات :

- من الواقعية أن يتصرف الثائرون على قاعدة أن العلاقات والصدقات هي وسيلة من أدوات الفعل وعدة الشغل ، وليست هدفاً بذاتها ، أو لذاتها .

- ومن قمة الواقعية أن يدرك الثائر أن الدول أو الهيئات ، ليست جمعيات خيرية ، أو مبررات إنسانية ، وإنما جهات تُتبادل معها المصالح ، ويُتقاطع معها على مشاريع واستراتيجيات .
 - والواقعية تقول أن الذي أعطاك لن يلبث أن يقول لك هات - لو ابتسامة - ، فهيء لهذا الموقف الممكن من متطلبات .
 - ومن الواقعية أن نقبل أن لا أن نلتقي نحن والآخرين على 100 % خيارات ومسارات ، بل يكفي أن نتقاطع في الاستراتيجيات والكليات ، فننتشارك دون مُكبلات أو معوقات .
 - ومن فهم الواقع والواقعية أننا - شئنا أو أبينا - سنكون جزءاً من المشاكل الداخلية لحلفائنا وأصدقائنا، أو قد يطلب منا مشاركة في معاركهم الجانبية ! فماذا أعددنا لمثل هذه المواقف السياسية .
 - قد يتطلب واقع الموقف حسماً - مع أو ضد - للخيارات في تبني المواقف والاتجاهات ، فكن مستعداً إذا اقتضى الموقف مثل هذه الوقفات .
 - ومن واقعيات عصر السوشال ميديا وثورة المعلومات ، أن مبدأ العلاقات القائم على قاعدة " رجل في البور ورجل في الفلاحة " قد ولى إلى غير رجعة !
- 3. بناء وإدارية وتشغيل القدرات :**

- من الواقعية أن يقتنع الثائرون أنهم لن يبلغوا مرتبة العدو في امتلاك القدرات ، فلا يهدر الوقت والمقدرات ، لتنصب على تأمين ما يعين على منع المعتدين من أن يبقوا مرتاحين ومستقرين .
- قمة الواقعية أن يفهم ويتصرف الثائرون على قاعدة أن حقائق اليوم هي أحلام الأمس ، وأحلام اليوم هي حقائق الغد و " لكنكم تستعجلون " .
- ومن الواقعية أن تخصص القدرات بناء على ترتيب الأولويات، فالعدل لا يعني المساواة .
- ليس من الواقع ولا الواقعية أن تبدأ في تشغيل القدرات من (سقفها) ، فالواقعية تقول لك إن بدأت من هنا فماذا ستنتهي وتختتم ؟
- ومن الواقعية الانتباه من الوقوع في (أسر) المزود أو الممهد للحصول على هذه القدرات ، شخصاً كان أو هيئات !!

4. التعامل مع الأهل والحاضنات الشعبية :

- عين الواقعية أن يفهم الثائرون أن حاضنتهم الاجتماعية هي الأصيل ، وهم الوكيل ، فلا يتصرف الوكيل بما يفقده ثقة الأصيل ؛ فيبحث له عن بديل .
- ومن المسؤولية والواقعية أن يقتنع الوكيل بمحدودية طاقة الأصيل ، فلا يحمله حملاً ثقيل.
- والواقعية تقول : أنه كما للثائر الوكيل أولويات واهتمامات ، فإن للمواطن الأصيل أولويات واهتمامات ، والسلوك الواقعي يتطلب تفاهماً على المتطلبات وترتيباً للأولويات ، فلا تتضارب المصالح ، وتنتشعب الدروب الموصلات .

- ومن الواقعية أن يؤمن الثائرون أن ما يسعهم من سلوك وضوابط وإجراءات ، قد لا يسع حاضنتهم ، والعكس في بعض هذا الأمر صحيح .
 - ومن الواقعية أن يفهم الثائرون أن هذه الحواضن هي مادة عمل للعدو ، يبحث عن ضعفها ، ومكامن الخلل فيها ، فيضغط عليها ليستثمرها ، الواقع يقول أننا وهم بشر ، يعترينا النقص ، ونضعف ، لذلك لا يجب أن يُعان العدو عليهم - على الحاضنة - بسوء الطوية أو بأخطاء مسلكية ، يزعم أنها من صلب الطباع الثورية !
- الخلاصة :**

في الختام ، يزعم كاتب هذه الورقة أن الثورة نقيض الواقع ، ما جاءت لتسكت عليه ، أو تستكين له ، إنها - الثورة - فعل قلب وتغيير جذري ، وليس فعل كشط وتبديل سطحي ، والثائر في أصل تركيبه إنسان متمرد على الواقع ، غير مسلم له ، يرى في السكون مفسدة ، وفي الاستكانة ضعف ، هو - الثائر - أكثر الناس فهماً للواقع لما يتركه عليه من أثر ، ويسببه له من كدمات ، وهو عندما يتعامل مع واقع مُعاش ، إنما يتعامل معه كزمان مستقطع ، وظرف زائل ، يحتك به - بالواقع - ليفهم كنهه ، ويحلل أبعاده ، ويتقي شره ، ويستثمر خيره ، ثم يتحرك لتغييره ، فإن سكن - الثائر - ؛ فالسكون الذي يسبق العاصفة ، وإن هدأ ؛ فهدأة هزبر متربص في كمين . وغير هذا الفهم " للواقع " و " الواقعية " ؛ مقدّرٌ صاحبه ، محترمٌ القائل به ، ولكنه ليس من سلوك " الثورة " ولا " الثائرين " . والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

عبد الله أمين
2023 10 01